

# الأخلاق عند الإمام

## زين العابدين (ع)

الشيخ هادي العاملي

قال النبي الأكرم (ص) في بداية دعوته المباركة: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". وتعلم أهمية هذا الأمر من اهتمام صاحب الدعوة الشريفة به، حيث جعله من أبرز مهامه التي جاء لأجلها، لإصلاح أمته وباقي الأمم. لأن الشيء الوحيد الذي يميز بني الإنسان بعضهم عن البعض الآخر هو الأخلاق، فإن الأخلاق الفاضلة قادرة على رفع مستوى الإنسان إلى أعلى مراتب الإنسانية، فإنه كلما تزين الإنسان بالأخلاق الحسنة ترقى في مراتب الإنسانية، وكلما اتصف بالأخلاق الذميمة وتجرد من محاسن الأخلاق، تدنى بإنسانيته إلى أن يصل إلى مراتب البهائم والحيوانات، بل قد تسمو هي عليه بعض الأحيان. إن الاتصاف بالأخلاق الحميدة يمنح الإنسان الشرف، والكمال، والجمال، وطيب النفس، وحسن النية، والعزة والكرامة. والمجتمع الإسلامي لا ينهض إلا بهذه القيم الأخلاقية، وإذا انعدمت عندنا هذه القيم آل أمرنا إلى الضياع والخسران، وأصبحنا مثاراً للسخط، والتفزز، والنفرة، والتذمر.

ولذا يقول الشاعر:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلاً  
وقد قال (ص): "أدبني ربي فأحسن تأديبي".

إن المبادئ الأخلاقية فطرية بطبيعتها، كالإحسان للفقراء، ومعونة العاجزين، ومبادلة الاحترام بين الناس، وإكرام الضيف، وحسن الجوار، وغيرها من المناهج الأخلاقية، لكن أسلوب الطرح والتطبيق وكيفية له الأثر الفعال في نجاح المشروع الأخلاقي التربوي البناء.

فأنجح أسلوب وأفضل نهج هو نهج الإسلام، المستمدة أنواره من القرآن الكريم وأخلاق أهل البيت (ع)، الذي امتاز بالاعتدال والأصالة، وسمو الهدف، وحسن الملاءمة لمختلف العصور والأفكار، وهذا ما أشار إليه النبي (ص) بإتمام مكارم الأخلاق.

فإن ما نراه في زماننا من تدني المستوى الأخلاقي في المجتمعات الإسلامية، ليس نابعاً من ضعف في الإسلام ومنهجه، وإنما هو لضعف بعض المسلمين الذين استخفوا بهذه المفاهيم وأهملوها.

ولذا نرى أن من تمسك بها وسار على نهجها تجسدت فيه مدرسة أخلاقية، ورائد هذه المسيرة ورافع رايها هو النبي (ص) وأهل بيته (ع)، وقد نهج منهجهم من تبعهم من أصحابهم والمحبين لهم والمتمسكين بهديهم. وها نحن نستعرض نبذة من الأخلاق العملية للنبي (ص) وأهل بيته (ع)، عسى أن نجسد شيئاً منها، ونكون مصداقاً لقول الصادق (ع): "كونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيئاً".

وقد شاءت الظروف أن تكون البداية بالإمام الرابع من أئمة أهل البيت (ع)، زين العابدين علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب (ع).

### أخلاقه مع أبويه

لقد عاش الإمام أياماً قليلة في ظل والدته، بعد أن أصابتها حمى في نفاسها، ثم توفيت عليها الرحمة، فعهد الإمام الحسين (ع) إلى إحدى أمهات أولاده بحضانتها ورعايته، فكانت تحنو عليه كأمه، إلى أن كبر وترعرع، فعلم بموت أمه، وأدرك أن هذه المرأة الصالحة قد أسدت إليه أنواع البر والإحسان والعطف والحنان، فلم تشعره بفقد أمه، فما كان منه إلا أن قابل جميلها بأحسن وجه، فكان يكن لها الاحترام والتقدير البالغين. حتى أنه ذات يوم من الأيام امتنع عن مؤاكلتها، فلأمله الناس على هذا العمل، وقالوا له: يا ابن رسول الله، أنت أبرّ الناس وأوصلهم رحماً، فلماذا لا تؤاكل أمك؟ فأجابهم قائلاً: "أخشى أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه، فأكون قد عقتها".

ومن بره بوالده أنه كان قد مرض في كربلاء مرضاً شديداً، ومع هذا فقد طلب من عمته أن تأتية بالعصا ليتوكأ عليها وينهض لنصرة سيد الشهداء، إلا أن عمته زينب منعتة من ذلك لئلا ينقطع نسل رسول الله (ص).

وقام بعد شهادة والده الحسين (ع) بتسديد ما عليه من الديون التي كان قد أنفقها على الفقراء. ومن بره بوالديه دعاؤه لهما، وهو كثير تجده في مظانه، كالصحيفة السجادية المباركة.

### أخلاقه مع أهل بيته

كان من أرف الناس وأبرهم وأرحمهم بأهل بيته، وكان لا يميز نفسه عنهم ولا يقدمها عليهم، بل كان كأحدهم، فقد ورد في الحديث أنه قال:

"لئن أدخل السوق ومعني دراهم أبتاع بها لعيالي لحماً وقد قرموا - اشتد شوقهم إلى اللحم - أحب إليّ من أن أعتق نسمة".

وكان يبكر في خروجه صباحاً لطلب الرزق لعياله، وكان يعين أهله في حوائجهم البيئية، ولا يأمر أحداً منهم في شيء من شؤونه، وخاصة فيما يتعلق بعبادته.

فكانت سيرته مع أهله مثالا للرحمة والرفقة والتعاون، لم ير الناس مثله قط.

### أخلاقه مع أبنائه

فقد ربّاهم التربية الإسلامية الرفيعة، فزرع في نفوسهم نزعاته الخيرة وتوجيهاته العظيمة، وقد أوصاهم بوصايا جلييلة تحمل المثل الأعلى للأخلاق السامية والآداب الرفيعة.

وكان يوصيهم بناقلة الليل، ويقول: "يا بني ليس هذا عليكم بواجب، ولكن أحب لمن عود منكم نفسه عادة من الخير أن يدوم عليها". وكان لا يدع صلاة الليل في السفر والحضر.

وكان زيد الشهيد (ره) يقول: "... فوالله لقد كان يؤتى بالطعام الحار فيقعدهني على فخذة، ويتناول المضغة فيبردها، ثم يلقمها".

### أخلاقه مع عبده ومماليكه

كان (ع) يعاملهم بلطف وعطف وحنان، كما يعامل أبنائه، فقد لاقوا في ظله من الرفق ما لم يلاقوه عند آبائهم.

ينقل بعض الأصحاب أنه (ع) لم يعاقب أمة ولا عبداً على ذنب اقترفاه. وكان له مملوك، فدعاه ذات يوم مرتين فلم يجبه، وفي الثالثة، قال له برفق ولطف: "يا بني، أما سمعت صوتي؟" قال: بلى. فقال (ع): "لم لم تجبني؟"، قال: أمنت منك. فخرج (ع) وراح يحمد الله ويقول: "الحمد لله الذي جعل مملوكي يأمنني".

قال سعيد بن مرجانة: عمد علي بن الحسين (ع) إلى عبد له - كان عبد الله بن جعفر أعطاه به عشرة آلاف درهم، أو ألف دينار - فأعتقه. وكان (ع) يشتري السودان وما به إليهم من حاجة، يأتي بهم عرفات يسدّ بهم الفرج، فإذا أفاض أعتقهم وأجازهم.

وروى الشيخ المفيد في "الإرشاد" في حديث، قال: ... جعلت جارية لعلي بن الحسين (ع) تسكب عليه الماء ليتهياً للصلاة، فنحست فسقط الإبريق من يد الجارية، فشجه، فرفع رأسه إليها، فقالت له الجارية: إن الله يقول: ﴿والكاظمين الغيظ﴾، قال (ع): "قد كظمت غيظي". قالت: ﴿والعافين عن الناس﴾، قال (ع): "عفا الله عنك". قالت: ﴿والله يحب المحسنين﴾، قال (ع): "إذهبي، فأنت حرة".

وكان عنده قوم أضياف، فاستعجل خادم له بشواء كان في التنور، فأقبل به الخادم مسرعاً، فسقط السفود - حديدة يشوى عليها اللحم - منه على رأس صبي لعلي بن الحسين (ع) تحت الدرجة، فأصاب رأسه فقتله. فقال (ع) للغلام - وقد تحيّر الغلام واضطرب -: "أنت حر، فإنك لم تتعمده". وأخذ في جهاز ابنه ودفنه.

### أخلاقه مع جيرانه

وكان (ع) من أبرّ الناس بجيرانه، فكان يرعاهم كما يرعى أهله، وكان يعول ضعفاءهم وفقراءهم، ويعود مرضاهم، ويشيخ موتاهم.  
وكان يستسقي - يحضر الماء - لضعفاء جيرانه في غلس الليل.  
وكان يكثر الدعاء لجيرانه.

### أخلاقه مع من جالسه

وكان يحترم ويكرم كل من جلس معه.  
وقال ذات يوم: "ما جلس إليّ أحد قط إلا عرفت له فضله".  
كان يوقر جلساءه، ويقابلهم بالمزيد من الطافه ومعالي أخلاقه.  
دخل عليه نصر بن أوس الطائي، فرحب به الإمام وقال له: "ممن أنت؟"، قال: من طيء. قال الإمام (ع): "حياءك الله وحيا قوماً عزيت إليهم، نعم الحسي حياك". والتفت الطائي إلى الإمام - وهو لا يعرفه - فقال له: من أنت؟ قال الإمام: "علي بن الحسين". قال: أولم يُقتل بالعراق مع أبيه؟ فقابله الإمام ببسمات فياضة بالبشر قائلاً: "لو قتل يا بني لم تره".

وينقل المؤرخون أنه كان لا يسمح لأحد من جلسائه أن يعتدي على من أساء إليه.  
فدخل عليه أحد أعدائه، فقال له: هل تعرف الصلاة؟، فانبرى أبو حازم - وهو من أصحاب الإمام - فأراد الوقيعة بالسائل، فزجره الإمام، وقال له: "مهلاً يا أبا حازم، إن العلماء هم العلماء الرحماء". ثم التفت إلى الرجل بلطف، وقال له: "نعم أعرفها". ثم سأل الإمام عن بعض خصوصيات الصلاة، فأجابته الإمام عنها. فحجل الرجل وراح يعتذر للإمام، ويقول له: ما تركت لأحد حجة.

### أخلاقه مع من أساء إليه

ينقل المؤرخون أنه لما طرد أهل المدينة بني أمية في وقعة الحرة، أراد مروان بن الحكم أن يستودع أهله، فلم يقبل أحد أن يكونوا عنده، إلا علي بن الحسين (ع)، فوضعهم مع عياله وأحسن إليهم، مع عداوة مروان المعروفة له ولجميع بني هاشم.  
وعال في وقعة الحرة أربعمائة امرأة من بني عبد مناف إلى أن تفرق جيش مسرف بن عقبة.

وكان (ع) له ابن عم يؤذيه، فكان يجيئه ويعطيه الدنانير ليلاً وهو مستتر، فيقول: لكن علي بن الحسين لا يصلني، لا جزاه الله خيراً. فيسمع ويصبر. فلما مات انقطع عنه، فعلم أنه هو الذي كان يصله.

وروى الواقدي قال: حدثني عبد الله ابن محمد بن عمر بن علي (ع)، قال: كان هشام بن إسماعيل يسيء إلى جوارنا، ولقي منه علي بن الحسين (ع) أذى شديداً، فلما عزل أمر به الوليد أن يوقف للناس. فقال: ما أخاف إلا من علي بن الحسين. فمر به علي بن

الحسين (ع)، وقد أوقف عند دار مروان، فسلم عليه، وكان علي بن الحسين (ع) قد تقدم إلى خاصته أن لا يعرض له أحد بكلمة. فلما مرّ ناداه هشام: الله أعلم حيث يجعل رسالته. وزاد ابن فياض في الرواية في كتابه: أن زين العابدين (ع) أنفذ إليه، وقال: "انظر إلى ما أعجزك من مال تؤخذ به، فعندنا ما يسعك، فطب نفساً منا ومن كل من يطيعنا". فنادى ابن هشام: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

ونال منه أحد أرحامه - وهو الحسن ابن الإمام الحسن (ع) - فلم يكلمه، ثم أتى منزله وصرخ به، فخرج الحسن متوثباً، فقال (ع) له: "يا أخي إن كنت قلت ما في فأستغفر الله منه، وإن كنت قلت ما ليس في يغفر الله لك". فقبله بين عينيه، وقال: بل قلت ما ليس فيك، وأنا أحق به.

وشتمه آخر، فقال (ع): "يا فتى، إن بين أيدينا عقبة كؤوداً، فإن جرت منها فلا أبالي بما قلت، وإن أتحير منها فأنا شر مما تقول".

وعن ابن حجر العسقلاني، قال: ... وكان عظيم التجاوز والعفو والصفح، حتى أنه سبه رجل فتغافل عنه، فقال الرجل: إياك أعني، فقال الإمام: "وعنك أعرض"، أشار إلى آية ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وانتهى ذات يوم إلى قوم يغتابونه، فوقف عليهم وقال لهم: "إن كنتم صادقين فغفر الله لي، وإن كنتم كاذبين فغفر الله لكم".

### في جملة من أخلاقه

عن زرارة، قال: حج (ع) على ناقة له عشرين حجة فما قرعها بسوط. وفي حديث آخر: فلما ماتت أمر بدفنها لئلا تأكلها السباع. ولقد سئلت عنه مولاة له، فقالت: ... ما أتيت به بطعام نهاراً قط، ولا فرشت له فراشاً بليل قط.

وكان يعول مائة عائلة من فقراء المدينة، وكان يناولهم بيده، ومن كان منهم له عيال حمل له إلى عياله من طعامه، وكان لا يأكل طعاماً حتى يبدأ فيتصدق بمثله. وعن عمرو بن دينار، قال: حضرت زيد بن أسامة الوفاة، فجعل يبكي، فقال له علي بن الحسين (ع): "ما يبكيك؟" قال: يبكي أن علي خمسة عشر ألف دينار، ولم أترك لها وفاء، فقال له علي بن الحسين (ع): "لا تبك، فهي علي وأنت بريء منها"، فقضاها عنه. وكان (ع) يمر على المدرة (الحجر) في وسط الطريق، فينزل عن دابته حتى ينحيها بيده عن الطريق.

وعن عبد الله بن موسى، عن أبيه، عن جده، قال: كانت أمي فاطمة بنت الحسين (ع) تأمرني أن أجلس إلى خالي علي بن الحسين (ع)، فما جلست إليه قط إلا قمت بخير قد أفدته، إما خشية لله تحدث في قلبي لما أرى من خشية الله تعالى، أو علم استفدته منه.